صديقي إدوارد سعيد، صاحب الضمير النقدي

بقلم: و،ج، ت، ميتشيل ***ترجمة: مرزاق بقطاش***

إن أي تظاهر بالنقد المحايد أو الموضوعية يتلاشى إذا ما تعلق الأمر بموت إدوارد سعيد وبحياته. فلقد كان إدوارد أحد أكبر الناقدين الباحثين بين أبناء جيله، وتسنى له أن يفتح حقولا معرفية جديدة بأكملها في مضمار التفكير والبحث أمام آلاف الناس ضمن حدود العالم الأكاديمي وخارجه. وكان أيضا صديقي العزيز المحبوب لمدة 22 عاما، بالإضافة إلى أنه كان في نفس الوقت مثلا من أعلى طراز في الحياة الثقافية بحيث لا يمكن تقليده وأخا ذكيا مطبوعا على الفكاهة، حسن المظهر والهندام، شديد التأنق مندفعا على الدوام إلى ريادة آفاق جديدة لا أكاد أراها.

فلقد فتح دوني عددا من الأبواب والنوافذ، ونظر إلي وكأنني أرض بكر في حاجة إلى استصلاح، أو راع بقر أمريكي في حاجة ماسة إلى التوجيه وإعادة التربية خاصة في مجال ارتداء الثياب. وتمثلت طريقتنا التقليدية حين اللقاء في أن يحدق في من رأسي إلى أخمص قدمي ويرسل أحكاما قاطعة بخصوص طبيعة حذائي، ويلومني على ترددي المستمر في اللجوء إلى خياط خاص.

لا أذكر عدد الساعات التي قضيناها في الحديث معا عبر الهاتف أو وجها لوجه حول طاولة الغداء خلال الأعوام العشرين الماضية. لقد كان له تأثير عميق في مجلة (كريتكال

إنكوايري Critical Inquiry التي أشرفت عليها خلال ربع قرن بأكمله. فمنذ لقائنا الأول في عام 1981، راحت المجلة تعقد ندوات حول (سياسات التأويل)، وألقى خلالها محاضرته الشهيرة حول (أسباب التعارض وكيفية استقبال الآراء والمسائل التأسيسية والاجتماعية). وقلما انقطعت الصلة بيننا أكثر من شهر أو شهرين. كنا نتقاسم الأسرار والأهواء، والمفاجآت والألعاب المضحكة والثرثرة والانتقادات، ونجري مقابلات ماراتونية في التنس بملاعب جامعة كولومبيا.

وما أكثر ما تبادلنا الرأي حول نظرية الأدب والحركات النقدية الجديدة وما بعد الحداثة والتفكيكية والسياسة والمواضيع الافتتاحية لمجلتنا والمسائل الذوقية. وكانت استراتيجيته المتميزة تتمثل في أن يدفعني إلى الصمت، ثم إنه كان يحول وجهة المناقشة الدائرة بيننا ويعبر عن بعض الشك حول ما قدمه من حجج، ويستعجلني على أن أخوض مجال معركة جديدة مثل ملاكم يهاجم خصمه على مدى جولة أو جولتين. وكان ذلك جزءا من استراتيجيته النقدية الواسعة التي تتلخص في اجتثاث التساؤلات بما في ذلك تساؤلاته هو، وفي مقاربة الأفكار النقدية، لا كمادة متناسقة أو كموقف محدد، بل على أساس أنها حوار في تحول مستمر. وفي هذا الشأن كنا نتقاسم مقولة الشاعر ويليام بليك التي تقول:(إن التعارض هو الصداقة الحقيقية).

في مقدور آخرين أن يتحدثوا من منظور أوسع عن إنجازات إدوارد سعيد الثقافية من حيث هو باحث في الموسيقى والأدب والفنون وناطق باسم الفلسطينيين. وأعتقد أنه لا أحد يستطيع الإلمام بمجمل تطلعاته، إذ أن قراءاته النهمة في التاريخ والسياسة والأدب الأوربي وأدب أمريكا والشرق الأوسط كانت قراءات لا حد لها. أما بالنسبة لي، فإن ما ميز نشاطه الثقافي وكتاباته السياسية (بالرغم من زعمه أنه يعيش حياتين اثنتين في وقت واحد، وهي في الحقيقة حياة واحدة متكاملة) إنما تمثل في خروجه عن الطوق والخوض في دروب معاكسة وعليه، فهو حين فتح المجال كاملا لما يسمى بما بعد الدراسات الكولونيالية، انطلق رأسا في نقد تلك الدراسات ومساءلتها في مجملها وما تتضمنه من أفكار متوقعة. أما دوره كناطق باسم فلسطين فقد تضمن منعطفات وتعقيدات مماثلة، إذ كثيرا ما قال إنه يريد تقديم العون من أجل بروز دولة فلسطينية حتى يستطيع بعد ذلك أن يضطلع بدوره الحقيقي كناقد.

ولعل أعمق تصوراته عن الشعب الفلسطيني إنما هي تلك التي تضمنها بحثه المطول (السماء الأخيرة) الذي وضعه بالاشتراك مع المصور السويسري الكبير جان مور. فلقد خاطر

في هذا الكتاب بأمرين اثنين: التزم بشكل فني تصويري (وهو واسطة كثيرا ما قال عنها إنها جعلته في محل اضطراب وخوف)، ثم مع الحياة في الداخل،أي مع شعب مقهور، ظلت حياته في اغتراب كلي عن الحياة الكوسموبوليتانية والأرستقراطية التي تمتع بها هو.

وكانت النتيجة عبارة عن صورة متعددة الأشكال عن الفلسطينيين والنماذج المستنسخة التي بثت عن هذا الشعب من الخارج، بل وكذلك من جانبه هو، وأوهامه وفضائله ونقائصه. وهذا الكتاب هو بطبيعة الحال مرافعة يطبعها الحماس من أجل الاعتراف دوليا بالمطالبات الشرعية للفلسطينيين وإدانة للاحتلال البشع والسلب الذي عاناه طيلة نصف قرن. بل وأكثر أهمية من ذلك، هو كونه مرآة للفلسطينيين، وفكرة نقدية لأخطائهم السياسية، ونظرتهم الثقافية القصيرة المدى. وهو إلى جانب ذلك اعتراف بعلاقة إدوار سعيد المبهمة بشعبه، تلك العلاقة التي لا تشبه علاقة (ناطق) بالمعنى المتداول. كان إدوارد ناطقا باسم الفلسطينيين على الطريقة التي كان أنبياء اليهود يتحدثون بها إلى إسرائيل، أي إنه كان يرفع صوته متحديا في العراء أحيانا، وأحيانا أخرى في دار الأوبرا أو القاعات التي تعزف فيها السمفونيات، وأحيانا في الأفلام أو في مقدمة ديوان شعري أو وثيقة خطية وأحيانا في محاضرة أكاديمية متحدثا دائما وأبدا عن الحقيقة التي لا يدعو فيها إلى استخدام القوة أبدا.

بالنسبة لي، فإن صوته الذي كان يرتفع في هذه المناسبات مع الجمهور ما كان ينفصل عن الصورة المدوية التي كثيرا ما وجدت أصداءها مع الأصدقاء والأقارب من سود وبيض ومن يهود وعرب وإيرلنديين وإنجليز وهنود حول طاولة العشاء مع المؤرخ الفلسطيني الكبير رشيد خالدي وزوجته منى. ليس من المهم أن نعرف مقدار ما نال منه المرض خلال السنوات الأخيرة، لكنه كان قادرا على جعله قويا عبر الهاتف وفي قناتي (بي بي سي BBC وبي بي أس BBS) فيصير واضح النبرات يزينه شعور مرهف بالميل إلى الفكاهة والتأثير العميق في الوقت نفسه.

وكان السير إلى جانب إدوارد والحديث معه أمرا واحدا. يسير بدون إجهاد، ويخوض معي محادثات طويلة النفس، ويقطعها بإبداء الملاحظات دون سابق إنذار. وفجأة، أجدني سائرا بمفردي، وقد أدرت له ظهري، فيختطفني عندئذ من ساعدي ويجذبني ليقربني منه قائلا: (ولكنك، يا صغيري، لا يمكنك أن تكون جادا!) أو (كلا،هل مثل هذا الأمر صحيح)؟ وعلى حد

ما توقعته دائما وأبدا، فلا الأماكن الضحلة التي تميز بعض السياسات الأكاديمية ولا الأماكن العليا للإستراتيجيات الشاملة كانت بمنجى عن نظرته الحكيمة وملاحظاته الثاقبة. ليس هناك موضوع لا يقع طائلة النقد، ولا معارضة فكرية تكون بمعزل عن الصرامة اللفظية التي تميزه.

وينبغي التذكير بأن إدوارد سعيد كان مجادلا من الطراز الأول، وصاحب نظرة نقدية على طريقة الروائي جوناثان سويفت. وقد تحولت سخريته اللاذعة إلى ما يشبه الهجاء في بعض الصحف. وكثيرا ما غضب على مجلة كريتيكال، وعلي أنا لأنها نشرت مقالات انتقادية ضده، وذات يوم وصف أحد معارضيه في مجلتنا بأنه شخص خيالي، ومجموعة مزيفة من صور إيديولوجية متراكمة. كان إنسانا غاضبا وهو في شبابه، وغاضبا وهو في طور الكهولة، وكان يعرف كيف يضطلع بدور الناقد البارع، ويصف أتباعه وزملاءه الصغار بأنهم عبيد للموضة، ويستخدمون أسلوبا منحطا في كتاباتهم النثرية. وبطبيعة الحال، فلقد دفع بالعديدين منهم إلى الغضب والغيرة منه. ولقد وقعت عليه التهمة دائما وأبدا بأنه يفتقر إلى (التوازن) في كتاباته السياسية، ويتردد في إدانة الإرهاب الفلسطيني ويهاجم دولة الإرهاب الإسرائيلية مهاجمة عنيفة. لكنه على غرار أي مجادل جدير بهذه الصفة، قد عرف ما التوازن، لكأنما كانت هناك بعض الحسابات الأخلاقية التي تتطلب إدانة موازية لكل من الضعف والقوة في وقت واحد.

وعلى الرغم من أنه كان يقول إنه يعيش حياتين اثنتين، لكن حياته بدت لي وحدة متكاملة، والأمر الذي ميز نشاطه وثقافته وكتاباته السياسية هو أنه كان يسعى على الدوام إلى الخروج عن كل ما هو محسوب ومتوقع مسبقا. وهكذا، حين بنى الحقل الكامل لما يسمى بما بعد الدراسات الكولونيالية، انطلق رأسا في نقد هذه الدراسات وفي مساءلة مجمل أفكارها. وقد انطوى دوره كناطق باسم فلسطين على منعطفات وتعقيدات مماثلة. كثيرا ما قال إنه يريد المساعدة على إبراز دولة فلسطينية حتى يستطيع بعد ذلك أن يضطلع بدوره الحقيقي كناقد وأن يهاجمه.

كنت أجد نفسي فجأة سائرا بمفردي، مديرا ظهري له بسبب الدهشة وإذا به يختطفني من ساعدي ويجذبني ليقربني منه: (ولكن، يا صغيري، لا يمكنك أن تكون جادا!) أو (كلا،أمثل هذا الأمر معقول؟) فلا الأماكن الضحلة التي تتميز بها بعض السياسات الأكاديمية ولا الأماكن العليا التي تستشرف فيها الإستراتيجيات الشاملة كانت بمنجى عن نظرته الحكيمة وممارسته الذكية.

ما كان هناك موضوع من المواضيع فوق طائلة النقد، ولا رأي معارض لا يناله بالصرامة اللفظية التي تميزه.

غير أن ظهور إدوارد سعيد أمام الجمهور لم يخل من ترويج مزعج بسبب الموت الذي ظل يتهدده نتيجة لصراعه مع داء السرطان، بل الأدهى والأمر كان من جانب أولئك الذين أرادوا دوما أن يلصقوا به التهمة بمعاداة السامية، أو أن يجعلوا من انتقاداته لإسرائيل مسألة من مسائل الوقوف في وجه السامية. وكانت وراء هذه الصورة حملة شرسة واسعة النطاق ترمي إلى توجيه الاتهامات بالعنصرية لجميع المثقفين الذين ينتقدون السياسات الإسرائيلية على أية حال، وبهذا المعنى، تعين علينا أن نتحول إلى إدوارد سعيد كلنا.

ما كان إدوارد سعيد ينساق أمام الناس أو في حياته الخاصة وراء أية غواية من خطاب الكراهية أو يسلك سلوكا ناقما. وكان في مقدور أي إنسان أن يلاحظ وجود عدد كبير من المتحاورين اليهود بالإضافة إلى علاقات حميمية مع الفلسطينيين والثقافات الإسرائيلية والتاريخ والتقارب مع الشعوب التي ترتبط فيما بينها بمصير مأساوي مشترك، كما لو أنه يمكن اعتبار الفلسطينيين يهود اليهود.

وعلى الرغم من أنه ما كان يتحدث العبرية، كان يحب أن يستشهد بالشاعر الفلسطيني محمود درويش الذي قال عنه ذات يوم إنه يمارس الجنس باللغة العبرية، وهي لغة تعلمها وهو طفل. أمضينا أسبوعا في الضفة الغربية وإسرائيل في خريف 1998 بمناسبة انعقاد ندوة دولية معتبرة بجامعة بير زيت. وكانت الندوة الموسومة (آفاق فلسطين) أكبر تجمع أكاديمي قدر لي أن أحضره. وقد نشرت وقائعها في (كتاب فلسطين/ استعراض شعري) من قبل جامعة بير زيت في عام 1999 بمشاركة شعب العلوم الإنسانية والاجتماعية من مختلف جامعات العالم، وجمعت بين مثقفين إسرائيليين وفلسطينيين. وهي تبدو الآن نائية جدا وكأنها لحظة أمل خيالية من أجل السلم في الشرق الأوسط. يبدو أن هناك جيلا جديدا مستعدا للاستحواذ عليها من قبل المحاربين القدماء، عرفات وشارون، ومستعدا لكي يتحرك في سبيل التصالح والاكتشاف المتبادل بالرغم من أن ذلك يبدو أمرا عصي التحقيق.

سافرت مع إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد على متن سيارة ببعض الراحة من رام الله إلى القدس ويافا، وزرنا أماكن طفولته، وبحثنا عن قرى فلسطينية مندثرة، وتاهت بنا الطرق في الجانب اليهودي من القدس، وسبحنا في البحر الأبيض البحر المتوسط. كان إدوارد سباحا ماهرا، وما أسرع ما خلفنا إلى الوراء وابتعد نحو عرض البحر إلى أن بدا لنا رأسه مثل نقطة، يظهر مرة ويغيب مرة أخرى وسط التموجات. سبح بعيدا جدا فما كان في مقدورنا أن نتبعه. غير أن فيض حديثه ما زال قائما بيننا، وسيظل يمارس النقد ويخوض غمار السياسة والثقافة ويعالج تطور الفكر الإنساني في الأزمنة القادمة.

و،ج، ت، ميتشيل أستاذ الإنجليزية وتاريخ الفن في جامعة شيكاغو، وناشر مجلة (كريتيكال إينكوايري Critical Inquiry). تجارب في الترجمة